جامعة حائل

كلية التربية الاساسية

قسم التاريخ

المحاضرة السادسة

محاضرات عصر الرسالة

م.د. أزهار غازي

٢٠١٥ م

١٤٣٦هـ

في هذه المرحلة ، فضلا عن أنها تعكس عدم اطمئنان المسلمين من ناحيه موقف اليهود . لذا فقد أرادوا تحديد التزاماتهم في هذا المجال بصورة دقيقة .

٥ . **سلطات الرسول ﷺ في قيادة الأمة** : ان دراسة نصوص الصيحفة تشير الى أنها جاءت تنفيذا للمبادئ التي قررها القرآن الكريم حول السيادة والسلطة . فقد نّصت الصيحفة على أن صاحب السيادة في المدينة هو الله تعالى لأنه صاحب الكلمة الفصل في جميع الأمور. أما الرسول ﷺ فهو صاحب السلطة التنفيذية التي تدير أمور المجتمع وتوجهها على وفق أوامر الله ونواهيه .

وقد تجلى هذا الأرتباط القوى بين اوامر الله تعالى بصفته صاحب السيادة وبين ممارسة الرسول للسلطات التنفيذية والقضائية على وفق تلك الأوامر في اكثر من موضع . فقد نّصت الصحيفة على وجوب عرض كافة الأمور التي يختلفون فيها على الرسول ﷺ للحكم فيها وحسمها طبقا لأوامر الله تعالى : «وأنكم مهما آختلفتمْ فيه من شيء ، فان مرده الى الله عز وجّل ، والى محمد ﷺ»(٨٦) . كما قررت وجوب عرض الخلافات والمنازعات التي تحصل بين الفئات التي تضمها الأمة من أنصار ومهاجرين ويهود ومشركين على الرسول ﷺ ليحكم فيها على وفق ما أمر به الله تعالى : «وانه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من

---

(٨٤) المصدر نفسه ، ق ١ ، ص ٥٠٣ – ٥٠٤ .

(٨٥) المصدر نفسه ، ق ١ ، ص ٥٠٤ .

(٨٦) المصدر نفسه ، ق ١ ، ص ٥٠٣ .

حدث أو اشتجار يخاف فساده ، فان مرده الى الله عزّوجلّ والى محمد رسول الله ﷺ ، وان الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره » (٨٧) .

وهكذا يتضح ان سلطة فض المنازعات التي تحصل بين ابناء الأمة ، والحكم في الخلافات التي تحصل بين مختلف العشائر المدنية قد اصبحت على وفق احكام الصحيفة من اختصاص الرسول ﷺ الذي يحكم فيها طبقا لأوامر الله تعالى .

وقد شكّل هذا الأمر تطورا ايجابيا في حياة أهل المدينة السياسية ، اذ أدى الى ايجاد سلطة قضائية تعمل على حسم المنازعات بين الأفراد والجماعات ، وتمنع الناس من تسوية منازعاتهم بأنفسهم عن طريق الثأر والثأر المقابل . لذا فقد أكدت الصحيفة على ضرورة ايقاع القصاص على الجاني من قبل الجماعة ، على وفق مبادئ الحق والعدل « وأنه من اعتبط مؤمنا قتلا — أي قتله بدون حق — عن بينة ، فانه قود به الاّ ان يرضى ولي المقتول ، وان المؤمنين عليه كافة . ولا يحل لهم الا قيام عليه ، وانه لا يحل لمؤمن أقرّ بما في هذه الصحيفة ، وآمن بالله واليوم الآخر ، ان ينصر محدثا ولا يؤويه ، وأن من نصره أو آواه ، فان عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل » (٨٨) .

لقد استهدفت الصحيفة تحقيق السلام في ربوع المدينة من خلال تنظيم العلاقات بين أهل المدينة على أساس من المساواة والعدل وايجاد السلطة التي تعمل على تحقيق ذلك . ومن أجل ترسيخ روح الأمن والسلام بين الناس فقد نصّت الصحيفة على أن « يثرب حرام جوفها على أهل هذه الصحيفة » (٨٩) . وبذلك أعطت لمسألة السلام في المدينة بعدا دينيا تمتد جذوره الى أبعاد عميقة في تقاليد العرب ومعتقداتهم (٩٠) . فكما ان مكة حرم آمن لا يجوز فيها القتل وسفك الدماء لأن فيها بيت الله الحرام ، فكذلك الأمر بالنسبة ليثرب لأنها مدينة رسول الله ﷺ (٩١) .

ولم تقتصر سلطات الرسول ﷺ على مسائل التحكيم والقضاء حسب احكام الصحيفة ، بل امتدت الى الأمور التنفيذية وبخاصة ما يتصل منها بالجوانب العسكرية ،

(٨٧) المصدر نفسه ، ق ١ ، ص ٥٠٤ .
(٨٨) المصدر نفسه ، ق ١ ، ص ٥٠٣ .
(٨٩) المصدر نفسه ، ق ١ ، ص ٤ .
(٩٠) العلي : الدولة في عهد الرسول ، ص ١٠٩ .
(٩١) روى ان الرسول ﷺ قال : « اللّهم ان ابراهيم عبدك ورسولك ، وأنا عبدك ورسولك ، واني قد حرمت ما بين لابتيها كما حرم ابراهيم مكة » .
البلاذري : فتوح البلدان ، ص ٢ .

فقد كانت الأمة في بداية تكوينها وهي بحاجة ماسة الى القوة العسكرية المنظمة للدفاع عن نفسها ومحاربة أعدائها المتربصين بها . لذا فقد نّصت على وجوب تضامن جميع أهل المدينة في أمور السلم والحرب : «وان سلم المؤمنين واحدة ، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل اللّه ، الاّ على سواء وعدل بينهم ، وان كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضا»(٩٢) . كما نّصت على وجوب مناصرة اليهود للمسلمين في الحرب بقولها : «وان بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة... وان اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين»(٩٣) .

وقد جعلت الصحيفة أمر اعلان الحرب او الدخول في السلم من صلاحيات الرسول ﷺ فنصت على أنه لايجوز لأحد من اليهود الخروج من المدينة لقتال أحد الاّ باذن من الرسول ﷺ «وأنه لا يخرج منهم أحد الاّ باذن محمد ﷺ»(٩٤) . ويبدو ان الصحيفة قد خصت اليهود بهذا الحكم ، لأنه كان من الأمور المقررة ان المسلمين لا يخرجون لقتال الاّ بناء على اوامر الرسول ﷺ وموافقته بحكم ايمانهم بوجوب طاعته ومبايعتهم له على ذلك .

وأخيرا فقد نصت الصحيفة على ضمان الحماية وألامن لكل من بر واتقى من أصحاب الصحيفة «وان اللّه جار لمن برّ واتقى ، ومحمد ﷺ»(٩٥) .

ان نجاح الرسول ﷺ في تنظيم اوضاع المدينة العامة على وفق احكام الصحيفة قد أدى الى تكامل شروط ظهور دولة – المدينة من الناحية القانونية ، وذلك لأن كافة أركان الدولة كانت متوافرة في المدينة من أقليم وشعب وسيادة عدا السلطة المنظمة التي تحكم المدينة . فلما توفرت هذه السلطة بمجيء الرسول ﷺ الى المدينة وقبول أهلها لسلطته وحكمه كما أوضحنا ذلك آنفا ، تكاملت كافة الأركان لها . فأصبحنا امام «دولة – مدينة» تتوافر لها عناصر الدولة من أقليم محدد بأرض المدينة وضواحيها ، وشعب مؤلف من المهاجرين والأنصار واليهود ، وسلطة متمثلة بحكومة الرسول ﷺ ، واستقلال كامل في حكم شعبها واقليمها .

---

(٩٢) ابن هشام : السيرة ، ق ١ ، ص ٥٠٣ .

(٩٣) المصدر نفسه ، ق ١ ، ص ٥٠٤ .

(٩٤) المصدر نفسه ، ق ١ ، ص ٥٠٣ .

(٩٥) المصدر نفسه ، ق ١ ، ص ٥٠٤ .

ان مصطلح دولة لم يكن معروفا بمعناه القانوني السياسي عند العرب والمسلمين في هذه المرحلة ، لذا فقد استخدمت الوثائق التاريخية التي ظهرت فيها ومنها الصحيفة ، مصطلح «أمة» للدلالة على الكيان السياسي المنظم الذي كان يسعى لنشر الرسالة الاسلامية وتحقيق أهدافها في الأرض (٩٦) . فكيف تسنى للأمة تحت قيادة الرسول ﷺ تحقيق هذه الأهداف بين الناس في السنوات القليلة المقبلة من حياته؟

(٩٦) لمزيد من التفصيل يراجع بحثنا : نشأة وتطور مفهوم الدولة في الفكر الاسلامي ، مجلة آداب الرافدين ، الموصل ١٩٧٢ ، عدد ٤ ، ص ٥٢ – ٥٦ .

الفصل السادس

دولة المدينة والجهاد في سبيل الله

أولا : دولة المدينة والجهاد :

أمضى الرسول (ﷺ) ثلاث عشرة سنة في مكة وهو يدعو الناس للايمان بالاسلام بالحكمة والموعظة الحسنة. ولم يفكر باللجوء الى القوة حتى بعد ان لجأت اليها قريش، فأخذت تضطهد المسلمين، وتعذب المستضعفين منهم.

ولم تكن دعوة الرسول (ﷺ) لأصحابه بالصبر على أذى المشركين واضطهادهم مردها عدم الايمان باستخدام القوة عند الضرورة للدفاع عن النفس، وانما كان سببها مراعاة الظروف العملية التي كانت تعيش في اطارها الجماعة الاسلامية الناشئة حيث لم تكن تملك من وسائل القوة ما يمكنها من مجابهة عدوان المشركين. لذا فقد كان من الطبيعي ان يبدأ موقف الرسول (ﷺ) من هذه المسألة بالتغير حينما نجح في اكتساب تأييد أهل المدينة للدعوة ومبايعتهم له بيعة العقبة الثانية التي عرفت ببيعة الحرب كما أوضحنا ذلك في الفصل الرابع.

لقد أخذ القرآن الكريم في اواخر الفترة المكية يهيئ أذهان المسلمين لاحتمال استعمال القوة ضد من يعتدى عليهم ويضطهدهم بسبب عقيدتهم. بل ان القرآن الكريم عدّ مقاومة البغي والرد على العدوان بالقوة صفة من صفات الجماعة الاسلامية مثل اقامة الصلاة وادارة أمورهم عن طريق الشورى. جاء في سورة الشورى التي هي من أواخر السور المكية[1] : ﴿والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون ، والذين اذا أصابهم البغي هم ينتصرون ، وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله انه لايحب الظالمين ، ولمن انتصر من بعد ظلمه فأولئك ماعليهم من سبيل﴾[2] .

وقد أعقب نزول هذه الآيات التي هيأت أذهان المسلمين لرد العدوان نزول الآيات التي تأذن للمسلمين بقتال المشركين دفاعا عن حرية العقيدة. يقول ابن اسحاق : «فكانت أول آية نزلت في اذنه له في الحرب ، واحلاله له الدماء والقتال لمن بغي عليهم»[3] قوله تعالى : ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الاّ أن يقولوا ربّنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره ، ان الله لقوي عزيز ، الذين ان مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهو عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور﴾[4] .

ان مضمون الآيات الآنفة الذكر يوحي بأنها قد نزلت بعد شروع المسلمين في الهجرة الى المدينة واستعداد الرسول (ﷺ) للحاق بأصحابه[5] . كما يحتمل أنها نزلت بعد هجرته الى المدينة مباشرة. وان مما يؤيد ذلك ماذكره القرطبي عن ابن عباس أنه قال نزلت هذه الآيات «عند هجرة رسول الله (ﷺ) الى المدينة. وروى النسائي والترمذي عن ابن عباس قال : لما أخرج النبي (ﷺ) من مكة قال ابو بكر ، أخرجوا نبيهم ، ليهلكن ، فأنزل الله تعالى هذه الآيات[6]»

---

(١) دروزة : سيرة الرسول ، ج ٢ ، ص ٢١٧.
(٢) سورة الشورى، الآية ٣٨ – ٤١.
(٣) ابن هشام : السيرة ، ق ١ ، ص ٤٦٧.
(٤) سورة الحج ، الآية ٣٩ – ٤١.
(٥) ابن هشام : السيرة ، ق ١ ، ص ٤٦٨.
(٦) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، ج ١٢ ، ص ٦٨.

لقد كان معنى الآيات المتقدمة كما يذكر ابن اسحاق ان الله تعالى قد أحل للمسلمين القتال «لأنهم ظلموا، ولم يكن لهم ذنب فيما بينهم وبين الناس، الاّ ان يعبدوا الله، وأنهم اذ ظهروا أقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر»(٧).

في ضوء ماتقدم فقد هاجر الرسول (ﷺ) وأصحابه المكيين الى المدينة، وهم موقنون بأنهم قد ظلموا من قبل قومهم من مشركي مكة. وأن من حقهم ان يستخدموا القوة في الرد على ظالميهم وضمان حرية الدعوة والعقيدة للناس. لذا فقد تضمنت الصحيفة التي أعلنها الرسول (ﷺ) في المدينة العديد من النصوص التي تعد مشركي مكة الأعداء الرئيسيين للأمة، وتحرم على أهل الصحيفة منح الجوار لهم أو لتجارتهم، كما تضمنت بعض النصوص التي تؤكد تضامن أهل المدينة في حالات الحرب وفي الدفاع عن المدينة.

ومن ثمة، ما كاد الرسول (ﷺ) ينتهي من وضع التنظيمات الداخلية لدولة المدينة، حتى توجه الى تنظيم سياستها الخارجية، وكانت تتلخص في محاولة عزل قريش عن حلفائها من القبائل العربية المقيمة بالقرب من المدينة وذلك بالتحالف معها وتوثيق الصلات بها. وقد تمثلت سياسة الرسول (ﷺ) في هذا المجال في استخدام القوة والمناورة بها من أجل تحقيق الأهداف الآنفة الذكر، وقد عرفت اعمال الرسول (ﷺ) في هذا المجال عند كتّاب السيرة النبوية بالسرايا والغزوات، التي كانت تعمل على تحقيق الأهداف الآتية:

١. كانت القبائل البدوية التي تعيش حول المدينة، أو على الطريق بين المدينة ومكة مثل قبيلة ضمرة وجهينة وغفار، تحترم القوة، وتقيم علاقاتها مع مختلف الأطراف على هذا الأساس. لذا فقد أراد الرسول (ﷺ) ان يستعرض أمامها مالديه من قوة من أجل حملها على التحالف معه، أو فك ارتباطات التحالف مع قريش واتخاذ موقف محايد بينها.
٢. لقد بادأت قريش المسلمين بالعدوان، وأخرجتهم من ديارهم وكانت لاتزال مصرة على سياستها في اضطهاد المستضعفين من المسلمين المقيمين في مكة، وتحريض القبائل العربية على الرسول (ﷺ) ودولته في المدينة. لذا أراد الرسول (ﷺ) من تنظيمه للغزوات والسرايا أن يفرض نوعا من الضغط الاقتصادي على مكة من خلال التعرض لقوافلها التجارية المتجهة الى الشمال عسى ان يحملها ذلك على اعادة النظر في موقفها من المسلمين.

(٧) ابن هشام: السيرة، ق ١، ص ٤٦٨.

٣ ـ كان المهاجرون يعانون من ضائقة اقتصادية شديدة وذلك لمصادرة قريش لأموالهم عند الهجرة. لذا فقد أراد الرسول (ﷺ) من توجيههم للمساهمة في الغزوات والسرايا ان يعوضهم عمّا أصابهم بمصادرة قوافل قريش التجارية، وبذلك تتحسن احوالهم الاقتصادية.

٤ ـ ان ضعف الجبهة الداخلية في المدينة، كان يتطلب أن يعمل الرسول (ﷺ) على اشعار الأطراف القلقة في المدينة كاليهود والمشركين من الأوس والخزرج، أنه قوي، ويمتلك الوسائل التي تمكنه من مجابهة خصومه عند الحرب والمنازلة، كي يأخذوا ذلك بنظر الاعتبار، فلا يفكروا بالخروج على سلطته.

يتضح مما تقدم أن الرسول (ﷺ) قد اتجه الى استعمال القوة في السرايا والغزوات لاعتبارات دفاعية عادلة تتصل برد العدوان والسعي لحماية حرية العقيدة، واذا كانت هذه الأعمال قد اتخذت طابع الهجوم في بعض الأحيان لأسباب عسكرية، الاّ ان الدافع المركزي لها هو الدفاع ضد العدوان الذي بدأه المشركون ضد المسلمين وفتنتهم عن دينهم. لذا فقد اطلق القرآن الكريم على حروب الرسول (ﷺ) اسم «الجهاد في سبيل اللّه»[٨]، وذلك لأن المسلمين كانوا يبذلون أقصى جهدهم في قتال الأعداد من أجل هدف سام، وهو اعلاء كلمة اللّه في الأرض أي توفير الظروف التي تسمح للدعوة لبلوغ الناس كافة من دون أن يعترض سبيلها أحد بطريق القوة والعدوان.[٩]

لقد كان الرسول (ﷺ) يدرك أن تحقيق الأهداف السامية للجهاد في سبيل اللّه، تتطلب قدرا عاليا من التجرد ووضوح الفهم. لذا فقد عمل على توضيح اهداف الجهاد لاتباعه كي لاتختلط وتتداخل مع أهداف الحروب والغزوات القبلية. روى ابو موسى الأشعري أن «رجلا أعرابيا أتى النبي (ﷺ) فقال: يارسول اللّه: الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل ليذكر، والرجل يقاتل ليرى مكانه، فمن في سبيل اللّه؟ فقال رسول اللّه (ﷺ): «من قاتل لتكون كلمة اللّه أعلى فهو في سبيل اللّه»[١٠].

لقد أكد القرآن الكريم ان اللّه تعالى قد ﴿اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، يقاتلون في سبيل اللّه فيقتلون ويقتلون﴾[١١]. وبذلك حبّب الى نفوسهم الشهادة

---

(٨) ورد مصطلح الجهاد في سورة الفرقان، وهي من السور المكية بمعنى مجاهدة الكفار بالحجة والبيان وتبليغ القرآن. قال تعالى في آية ٥٢: ﴿فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا﴾.

(٩) الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ج ١، ص ٢٨٦؛ سورة الأنفال، الآية: ٧٢ ـ ٧٥.

(١٠) المنذري: مختصر صحيح مسلم، تحقيق: ناصر الدين الألباني، الكويت ١٣٨٥ هـ، ج ٢، ص ٤٨.

(١١) سورة التوبة، الآية ١١١.

وجعلهم ينظرون اليها بصفتها هدفا ساميا يعلو على الأهداف الدنيوية المباشرة ، ومن ثم فقد أقبلوا على الجهاد على الرغم مما فيه من تضحية بأعز مايمتلكه الانسان : ﴿كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى ان تحبوا شيئا وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لاتعلمون﴾ (١٢) .

ثانيا : بدء الغزوات والسرايا :

ذهب كتّاب السيرة النبوية الى تسمية الحملات العسكرية التي قادها الرسول (ﷺ) بنفسه باسم «الغزوات» في حين أطلقوا على الحملات العسكرية التي عهد بقيادتها الى غيره اسم «السرايا» او البعوث (١٣) .

١ . غزوة ودان :

لايختلف كتّاب السيرة على أن أول غزوة قادها الرسول (ﷺ) بنفسه كانت غزوة ودان ، وقد أطلق عليها ايضا غزو الابواء . وقد وقعت في شهر «صفر على رأس اثني عشر شهرا من مقدمه المدينة» (١٤) . وعند الواقدي أنها وقعت على رأس احد عشر شهرا من مقدمه المدينة (١٥) .

ولم تزودنا المصادر بعدد أفراد القوة التي خرج بها الرسول ﷺ للقتال ولكنها ذكرت أن جميع أفرادها كانوا من المهاجرين وان حمزة بن عبد المطلب قد حمل اللواء ، وكان لونه ابيض . كما استخلف على المدينة سعد بن عبادة . أما هدف الرسول ﷺ من هذه الحملة فكان التعرض لقافلة تجارية لقريش ، الاّ ان هذا الهدف لم يتحقق ربما بسبب هرب القافلة . لذا فقد عمل الرسول ﷺ على موادعة مخشي بن عمرو الضمري سيد بني ضمرة «على ان لا يغزو بني ضمرة ولا يغزوه ، ولا يكثروا عليه جمعا ولا يعينوا عليه عدوا ، وكتب بينه وبينهم كتاباً» . ثم عاد الى المدينة ، وكانت غيبته عنها خمس عشرة ليلة» (١٦) .

---

(١٢) سورة البقرة ، الآية ٢١٦ .
(١٣) ابن سعد : الطبقات ، ج ٢ ، ص ٥ - ٦ .
(١٤) ابن هشام : السيرة ، ق ١ ، ص ٥٩٠ - ٥٩١ ؛ ابن سعد : الطبقات ، ج ٢ ، ص ٨ .
(١٥) الواقدي : المغازي ، ج ١ ، ص ٢ .
(١٦) ابن سعد : الطبقات ، ج ٢ ، ص ٨ .

ولكن هل كانت هذه الحملة هي فاتحة نشاطات الرسول ﷺ الحربية ام سبقتها نشاطات أخرى؟.. لقد انقسم كتّاب السيرة الأوائل في الاجابة عن هذا السؤال الى فئتين، فذهبت الفئة الأولى وعلى رأسها ابن اسحاق وخليفة ابن خياط وابن حزم، وابن سيد الناس، الى ان هذه الحملة كانت بداية نشاطات الرسول ﷺ العسكرية (١٧)، في حين ذهبت الفئة الثانية وعلى رأسها الواقدي، وابن سعد، وابن كثير، الى انه قد سبقت غزوة ودان ثلاث سرايا عسكرية هي سرية حمزة بن عبد المطلب، وقد خرجت على رأس سبعة أشهر من مهاجرة النبي ﷺ، وسرية عبيدة بن الحارث على رأس ثمانية أشهر، وسرية سعد بن ابي وقاص على رأس تسعة أشهر من هجرة الرسول ﷺ الى المدينة (١٨).

والحقيقة انه ليس بين أيدينا من النصوص او الأدلة التاريخية ما يساعدنا على الترجيح القاطع بين هذين الرأيين. ومع ذلك فان هنالك من القرائن ما يجعلنا نميل الى الرأي الأول. وذلك لأن الطبري حينما عرض لهذا الخلاف في الروايات، ضعف رواية الواقدي بقوله: «وزعم الواقدي...» (١٩) في الوقت الذي وثق فيه رواية ابن اسحاق بقوله: «وقال ابن اسحاق في أمر كل هذه السرايا التي ذكرت عن الواقدي قوله فيها غير ما قاله الواقدي، وأن ذلك كلّه كان في السنة الثانية من وقت التاريخ» (٢٠).

وربما كان من الأمور التي ترجح الرأي الأول حرص الرسول ﷺ على ان يكون دائماً قدوة لأتباعه وبخاصة في الأمور الكبيرة. فهل يعقل ان يترك أمر افتتاح سياسة القتال ومجاهدة الأعداء لأصحابه ويبقى هو جالساً في المدينة ينتظر سماع الأخبار؟...

نخلص مما تقدم الى ان النشاط الحربي لدولة المدينة قد بدأ بغزوة ودان التي قادها الرسول ﷺ بنفسه في أواخر السنة الأولى للهجرة ثم اعقبتها بقية السرايا والغزوات. وسنعرض فيما يأتي لأبرزها على وفق التسلسل الزمني الذي اعتمده ابن اسحاق:

---

(١٧) ابن هشام: السيرة، ق ١، ص ٥٩١؛ ابن خياط: تاريخ، ج ١، ص ١٣، ٢٠ – ٢١؛ ابن حزم: جوامع السيرة، ص ١٠٠ – ١٠١؛ ابن سيد الناس: السيرة، ج ١، ص ٢٩٥ – ٢٩٦.

(١٨) الواقدي: مغازي، ج ١، ص ٩ – ١١؛ ابن سعد: الطبقات، ج ٢ ص ٦؛ ابن كثير: السيرة النبوية، ج ١، ص ٤٢٠.

(١٩) الطبري: تاريخ، ج ٢، ص ٤٠٢.

(٢٠) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٠٣.

٢. سرية عبيدة بن الحارث :

ذكر ابن اسحاق ان الرسول ﷺ بعث هذه السرية بعد عودته الى المدينة من غزوة ودان في أوائل شهر ربيع الأول من السنة الثانية للهجرة. وكان عدد رجال هذه السرية ستين او ثمانين مقاتلا من المهاجرين. وقد اتجهت هذه السرية الى ماء بالحجاز بأسفل ثنية المرة، «فلقي بها جمعا عظيما من قريش، فلم يكن بينهم قتال، الاّ ان سعد بن أبي وقاص، قد رمى يومئذ بسهم، فكان أول سهم رمي في الاسلام»[٢١].

وقد ذكر الواقدي أن عدد المشركين «كان يومئذ مائتين»، وكانت قافلتهم بقيادة أبي سفيان. وقد حصلت بينهم وبين المسلمين مناوشة ولم يصطفوا للقتال، ثم انصرف هؤلاء على حاميتهم وهؤلاء على حاميتهم.[٢٢]

يبدو مما تقدم أن المسلمين لم يشاءوا الدخول في معركة حاسمة مع المشركين لتفوق قوة المشركين العددية ولأن أهداف سريتهم ربما كانت محصورة بادخال القلق والخوف الى نفوس المشركين وتهديد تجارتهم.

٣. سرية حمزة بن عبد المطلب :

بعث الرسول ﷺ هذه السرية بقيادة عمّه حمزة الى سيف البحر من ناحية العيص، في ثلاثين راكبا من المهاجرين في شهر ربيع الأول من السنة الثانية لهجرته الى المدينة في موعد قريب من موعد ارسال سرية عبيدة بن الحارث. وبعض الناس يقول — كما يروي ابن اسحاق : «كانت راية حمزة أول راية عقدها رسول اللّه ﷺ لأحد من المسلمين. وذلك ان بعثه وبعث عبيدة كانا معا، فشبه ذلك على الناس»[٢٣]

وقد ذكر الواقدي أن رجال سرية حمزة كانوا شطرين، «خمسة عشر من المهاجرين وخمسة عشر من الأنصار»[٢٤]. وقد أورد مثل هذه الرواية ابن سعد ايضا.[٢٥]

---

(٢١) ابن هشام: السيرة، ق ١، ص ٥٩١.

(٢٢) الواقدي: المغازي، ج ١، ص ١٠.

(٢٣) ابن هشام: السيرة، ق ١، ص ٥٩٥ — ٥٩٦.

(٢٤) الواقدي: المغازي، ج ١، ص ٩.

(٢٥) ابن سعد: الطبقات، ج ٢، ص ٦.

وقد اعترضت هذه السرية عند سيف البحر قافلة لقريش «قد جاءت من الشام تريد مكة ، فيها ابو جهل في ثلاثمائة راكب من أهل مكة ، فالتقوا حتى اصطفوا للقتال ، فمشى بينهم مجدي بن عمرو- الجهني- وكان حليفا للفريقين جميعا ، فلم يزل يمشي الى هؤلاء والى هؤلاء حتى انصرف القوم ، وانصرف حمزة راجعا الى المدينة في اصحابه»[٢٦] .

٤ . سرية سعد بن أبي وقاص :

روى ابن اسحاق أن الرسول ﷺ بعث هذه السرية في ثمانية رجال من المهاجرين حتى بلغت الخرار من أرض الحجاز، ثم رجعت ولم تلق كيدا[٢٧] . غير ان الواقدي ذكر ان عدد افراد هذه السرية كان حوالي العشرين شخصاً وانها خرجت للتعرض لقافلة من قوافل قريش ، الاّ انها لم تستطع اللحاق بها ، اذ كانت قد غادرت المكان قبل وصول السرية بيوم واحد[٢٨] .

٥ . غزوة بواط :

خرج رسول الله ﷺ الى بواط ، من ناحية رضوى في آخر ربيع الأول للتعرض لقافلة قريش «ولم يلق كيدا ، فلبث بها بقية شهر ربيع الآخر، وبعض جمادي الأولى»[٢٩] . وقد أوضح ابن سعد ان الرسول ﷺ «خرج في مائتين من اصحابه يعترض لعير قريش ، فيها أمية بن خلف الجمحي ، ومائة رجل من قريش وألفان وخمسمائة بعير ، فبلغ بواط ، وهي جبال من جبال جهنية ... مما يلي طريق الشام .. فلم يلق رسول الله ﷺ كيدا فرجع الى المدينة».[٣٠]

ويبدو ان تعبيران الرسول ﷺ : «لم يلق بها كيدا» مفاده انه لما وصل هدفه كانت قافلة المشركين قد هربت ، فلم يحصل قتال . وربما أن هدف الرسول من هذه الحملات كان محصوراً بحدود عملية استعراض القوة واشعار مشركي مكة بالخطر ، فضلا عن محاولة

---

(٢٦) الواقدي : المغازي ، ج ١ ، ص ٩ .

(٢٧) ابن هشام : السيرة ، ق ١ ، ص ٦٠٠ .

(٢٨) الواقدي : المغازي ، ج ١ ص ١١ .

(٢٩) ابن هشام : السيرة ، ق ١ ، ص ٦٠٠ .

(٣٠) ابن سعد : الطبقات ، ج ٢ ، ص ٨ - ٩ .

كسب القبائل العربية المتواجدة على الطريق بدليل ان الرسول ﷺ قد لبث في بواط حوالي الشهر او حسب قول ابن اسحاق «بقية شهر ربيع الآخر، وبعض جمادي الأولى». (٣١)

٦. غزوة العشيرة:

خرج رسول الله ﷺ من المدينة بعد عودته من الغزوة السابقة بقليل، ربما في أواخر شهر جمادي الأولى كما يذكر ابن اسحاق (٣٢) او في «جمادي الآخرة على رأس ستة عشر شهرا من مهاجره «كما يقول ابن سعد. (٣٣)

وكانت قوة المسلمين مؤلفة من مائة وخمسين رجلا من أصحاب الرسول ﷺ، ويقال من مائتين (٣٤)، وقد اتجهت الى العشيرة وهي ناحية بين مكة والمدينة، من أجل التعرض لقافلة قريش كانت قد خرجت من مكة متجهة الى الشام. الاّ أن قوة المسلمين لم تستطع اللحاق بها لأنها كانت قد غادرت العشيرة قبل وصول المسلمين اليها بأيام. وقد أشير الى ان هذه القافلة هي نفس القافلة التي خرج المسلمون لمصادرتها عند عودتها من الشام، والتي أدى خروج قريش لحمايتها الى معركة بدر. (٣٥)

لقد استثمر الرسول ﷺ هذه الغزوة «منزل العشيرة من بطن يتبع، فأقام بها جمادي الأولى وليالي من جمادي الآخرة، وادع فيها بين مدلج وحلفاءهم من بني ضمرة» (٣٦)، «ثم رجع الى المدينة» (٣٧)

---

(٣١) ابن هشام: السيرة، ق ١، ص ٥٩٨.

(٣٢) المصدر نفسه، ق ١، ص ٥٩٩.

(٣٣) ابن سعد: الطبقات، ج ٢، ص ٩.

(٣٤) الواقدي: المغازي، ج ١، ص ١٢؛ ابن سعد: الطبقات، ج ٢، ص ٩.

(٣٥) ابن سعد: الطبقات، ج ٢، ص ١٠.

(٣٦) ابن هشام: السيرة، ق ١، ص ٥٩٩.

(٣٧) ابن سعد: الطبقات، ج ٢، ص ١٠.

٧. غزوة سفوان (بدر الأولى) :

لم يكد الرسول ﷺ يستقر في المدينة الاّ ليالي قلائل لا تبلغ العشر بعد عودته من غزوة العشيرة ، حتى تعرضت أطراف المدينة لغارة قام بها كرز بن جابر الفهري على سرح المدينة من الابل والمواشي ، فخرج رسول اللّه ﷺ على رأس قوة من المسلمين لملاحقته ، حتى بلغ واديا يقال له سفوان من ناحية بدر. الاّ أنه لم يدركه ، فرجع الى المدينة.(٣٨) ان هذه الحادثة تؤكد مدى حاجة المسلمين الى القوة للدفاع عن أنفسهم وحماية اموالهم وأراضيهم في بيئة تقوّم العلاقات العامة بها على احترام القوة.

٨. سرية عبداللّه بن جحش (سرية نخلة) :

في شهر رجب من السنة الثانية للهجرة ، بعث الرسول ﷺ سرية مؤلفة من ثمانية أشخاص بقيادة عبداللّه بن جحش الى موضع يدعى نخلة يقع بين مكة والطائف. ولم يشأ الرسول ﷺ ان يكشف عن الجهة التي ستذهب اليها السرية حتى لأفرادها وقائدهم ، اذ زودهم بكتاب مختوم يحدد وجهتهم ، ويطلب منهم عدم فتحه الاّ بعد ان يبتعدوا عن المدينة مسافة يومين(٣٩) .

ان احاطة الرسول ﷺ أهداف هذه السرية بمثل هذا الكتمان الشديد ربما كان مرجعه رغبته الشديدة في حماية حياة أفراد هذه السرية من المخاطر التي قد تصيبهم اذا عرف الخبر ، وبخاصة وأنهم سيتجهون الى منطقة قريبة من مكة ، ويقطنها مشركون يرتبطون بقريش بروابط وثيقة(٤٠) . لذا فقد طلب الرسول ﷺ من قائد السرية ان لا يستكره أحداً من أفرادها على المضي معه بعد اعلامهم بالموضع الذي سيتجهون اليه. وقد قام قائد السرية باحاطة أصحابه بأوامر الرسول ﷺ بقوله : «قد أمرني رسول اللّه ﷺ أن أمضي الى نخلة أرصد بها قريشا ، حتى آتيه منهم بخبر ، وقد نهاني أن استكره أحداً منكم ، فمن كان يريد الشهادة ويرغب فيها ، فلينطلق ، ومن كره ذلك فليرجع ، فأما

(٣٨) ابن هشام : السيرة ، ق ١ ، ص ٦٠١ ؛ ابن سعد : الطبقات ، ج ٢ ، ص ٩ .

(٣٩) ابن هشام : السيرة ، ق ١ ، ص ٦٠١ — ٦٠٢ .

(٤٠) العلي : الدولة في عهد الرسول ، ص ٢١٨ .

أنا فماض لأمر رسول الله ﷺ ، فمضى ومضى معه أصحابه لم يتخلف عنه منهم أحد »(٤١) .

وحين وصلت السرية الى نخلة ، مرت بهم قافلة تجارية لقريش كانت قادمة من الطائف تحمل معها زبيباً وأدما – أي جلودا – وكان برفقتها أربعة رجال ثلاثة منهم من بني مخزوم والرابع حضرمي يدعى عمرو بن الحضرمي . فلما رأى أفراد السرية قافلة قريش تحركت في اعماقهم روح الثأر والقتال . الاّ أنهم ترددوا لأنهم كانوا في اخر يوم من رجب ، وهو من الأشهر الحرم عند العرب التي لا يجوز فيها قتال . فتشاوروا فيما بينهم فيما يجب عليهم فعله ، فقال بعضهم « والله لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلن الحرم ، فليمتنعن منكم به ، ولئن قتلتموهم لتقتلنهم في الشهر الحرام ، فتردد القوم ، وهابوا الاقدام عليهم ، ثم شجعوا أنفسهم عليهم وأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم ، وأخذ ما معهم ، فرمى واقد بن عبدالله التميمي عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله ، واستأسر عثمان بن عبدالله والحكم بن كيسان ، وأفلت القوم نوفل بن عبدالله ، فأعجزهم . وأقبل عبدالله بن جحش وأصحابه بالعير والأسيرين ، حتى قدموا على رسول الله ﷺ المدينة »(٤٢) .

لم يستقبل الرسول ﷺ ما فعله افراد هذه السرية بالرضى لأنهم لم ينفذوا اوامره على نحو صحيح ، وقال لهم : « ما آمرتكم بقتال في الشهر الحرام ، فوقف العير والأسيرين ، وأبى أن يأخذ من ذلك شيئاً . فلما قال ذلك رسول الله ﷺ سقط في أيدي القوم ، وظنوا أنهم قد هلكوا ، وعنفهم اخوانهم المسلمون فيما صنعوا »(٤٣) .

وقد استغلت قريش هذه المناسبة لاثارة عموم العرب على المسلمين لأنهم خرجوا على أحد أهم تقاليدهم . فقالت : « استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام ، وسفكوا فيه الدم وأخذوا فيه الأموال ، وأسروا فيه الرجال »(٤٤) . ولم يجد المسلمون في البداية ما يسوغون فعل أفراد السرية سوى القول أن ما حصل كان بعد انقضاء الشهر الحرام أي في الأول من شعبان(٤٥) .

---

(٤١) ابن هشام : السيرة ، ق ١ ، ص ٦٠٢ .

(٤٢) المصدر نفسه ، ق ١ ، ص ٦٠٣ .

(٤٣) المصدر نفسه ، ق ١ ، ص ٦٠٣ – ٦٠٤ .

(٤٤) المصدر نفسه ، ق ١ ، ص ٦٠٤ .

(٤٥) المصدر نفسه ، ق ١ ، ص ٦٠٤ .

ويبدو أن صدى دعاية قريش كان كبيراً في المدينة نفسها، وأخذ اليهود يتفاءلون بقرب نشوب الحرب الانتقامية التي ستشنها قريش ضد المسلمين[٤٦]. وربما تجاوب مع اليهود بعض أهل المدينة حتى أصبحت المدينة كما يقول الواقدي: «تفور فور المرجل»[٤٧].

في هذه الأجواء العصبية التي كان يعيش فيها المسلمون، نزل القرآن الكريم على الرسول ﷺ بقوله تعالى: ﴿يسئلونك عن الشهر الحرام قتال فيه، قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام، واخراج أهله منه اكبر عند الله والفتنة اكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا﴾[٤٨].

ومعنى هذه الآية على قول جمهور المفسرين «انكم يا كفار قريش تستعظمون علينا القتال في الشهر الحرام، وما تفعلون أنتم من الصد عن سبيل الله لمن أراد الاسلام، ومن كفركم بالله واخراجكم أهل المسجد منه، كما فعلتم برسول الله ﷺ وأصحابه أكبر جرما عند الله»[٤٩].

وبذلك هدأت نفوس المسلمين وشعروا أن ما فعله عبدالله بن جحش وأفراد سريته لم يكن بالأمر الجسيم كما صورته دعاية قريش، وانما كان نوعاً من رد العدوان الذي كانت قريش قد بدأته ضد المسلمين، وما زالت مصرة على متابعته. لذا فقد قبض الرسول ﷺ الغنائم التي حصلت عليها السرية مع الأسيرين، ولم يطلق سراحهما حتى أخذ عنها الفدية من قريش[٥٠].

فكانت هذه الغنيمة «أول غنيمة غنمها المسلمون، وعمرو بن الحضرمي أول من قتله المسلمون، وعثمان بن عبدالله، والحكم بن كيسان أول من أسر المسلمون»[٥١]. أما السرايا المسابقة فقد اقتصرت على التهديد وممارسة الضغط على قوافل قريش التجارية ولم يحصل فيها قتال او سفك للدماء وحصول على غنائم. ان سرية نخلة كانت فاتحة مرحلة الصراع المسلح بين دولة المدينة ومكة.

(٤٦) المصدر نفسه، ق ١، ص ٦٠٤.

(٤٧) الواقدي: المغازي، ج ١، ص ١٦.

(٤٨) سورة البقرة، الآية ٢١٧.

(٤٩) القرطبي: الجامع لاحكام القرآن، ج ٣، ص ٤٦.

(٥٠) ابن هشام: السيرة، ق ١، ص ٦٠٤.

(٥١) المصدر نفسه، ق ١، ص ٦٠٥.